النبوغ المغربي في الأدب العربي

تأليف

الاستاذ عبدالله كنون

بقلم

اللواء الركن : محمود شيت خطّاب

سمعت بالأستاذ الجليل عبد الله كنون منذ زمن بعيد ، فقد اخترقت شهرته العلمية والأدبيّة بلاد المغرب الى المشرق ، وعرف بأصالة بحوثه وأمانته العلمية .

ولاقيته لأول مرة في مؤتمر المجمعين : مجمع اللغة العربية ، والمجمع العلمي العراقي ، الذي انعقد في بغداد من ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٥ لغاية ٣٠ تشرين الثاني ١٩٦٥ ، فصدق الخَبَر الخُبْر بل زاد عليه ، ولمست فيه إستقامة وورعاً وإيماناً عميقاً ، وحرصاً شديداً على مبادىء القرآن الكريم ولغة القرآن الكريم ، فكانت معرفتي له من أثمن ما جنيته من مؤتمر المجمعين الموقرين .

للمؤلف الفاضل كتب كثيرة مطبوعة ، لعلّ من أهمها : (١) التعاشيب ، (٢) واحة الفكر ، (٣) خل وبقل ، (٤) شرح مقصورة المكودي ، (٥) شرح الشمقمقيّة ، (٦) المنتخب من شعر ابن زاكور ، (٧) مفاهيم إسلامية .

ولكنّ أهمّ مؤلفاته هو كتابه القيّم : النبوغ المغربي في الأدب العربي ، لأنه كتاب سدّ ثغرة كبيرة واسعة في المكتبة العربية ، وعرّف الأدب المغربي للأدباء ، فأصبح هذا

الكتاب بحق مصدراً من أهم مصادر الأدب المغربي على الأخلاق .

ولم يكن المؤلف يهدف بكتابه إلى تمييز أدب المغرب بميزة ليست في الأدب العربي العام ، ولا إلى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتاباً خاصاً بأدب قطر خاص من أقطار العرب على حدته ، وإنما كان مقصود المؤلف هو بيان الأبنة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي التي تعاونت على بنائه أقطار العروبة كلها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يقصروا عن إخوانهم من المشارقة ومغاربة بقية أقطار المغرب العربي في العمل على ازدهار الأدب العربي .

فقد رأى المؤلف إهمال أدباء المغرب في كتب الأدب وكتب تاريخ الأدب ، حتى لتذكر تونس والجزائر ، وبالحرى القيروان وتلمسان فضلاً عن قرطبة واشبيلية ، ولا تذكر فاس ومراكش بحال من الأحوال .

وعكف المؤلف الفاضل باحثاً ومنقباً ، فوجد كنوزاً عظيمة من أدب لا يقصر في مادته عن أدب أي قطر من أقطار العرب ، وشخصيات أدبية وعلمية لها في مجال الانتاج والتفكير مقام رفيع . وتتبع المؤلف جميع ما وصلت اليه يده من آثار أدبية مغربية ، وأخبار عن علماء المغرب وأدبائه ، فوفق الى ما أراد أي توفيق ، حتى قال في هذا الكتاب المرحوم شكيب أرسلان : « إن من لم يقرأه ، فليس على طائل من تاريخ المغرب العلمي والأدبي والسياسي »، وصار بروكلمان يعتمده في ملحقات كتابه عن تاريخ الأدب العربي . كما أثنى عليه العالم الايطالي جيوفاني بلانكي في مقال له بمجلة الشرق الحديث فقال : «بإزاء المساهمة التي أبداها المغرب في الآداب العربية ، تلك المساهمة التي أهملت حتى اليوم ، ولم تقدر كما كان ينبغي » ، وكان هذا العالم الايطالي قد اطلع على الترجمة الاسبانية للكتاب .

- جمع هذا الكتاب العلم والتاريخ والسياسة ، وتصوير الحياة الفكرية في المغرب من الفتح الاسلامي حتى العصر الحديث ، وقد مزج المؤلف في كتابه بين الحركات الفكرية

والحركات السياسية مزجاً عجيباً ، حقق فيه الصلة الطبيعية التي لاتكاد تنفك في كل دور من أدوار الأمم بين العلم والسياسة ، بحيث لايرقى الواحد منها إلا إذا رقى الآخر برقيه كاللازم والملزوم .

عالج المؤلف في الجزء الأول من كتابه الرائع : عصر الفتوح ، وتحدث عن الفاتحين الحقيقيين ، وذكر كيف انتشر الاسلام في المغرب ، واستعراب المغاربة ، والصراع بين العرب والمغاربة ، والوسط الفكري في عصر الفتوح .

ثم انتقل إلى عصر المرابطين ، وسياسة الجامعة الاسلامية التي عمل من أجلها المرابطون ، وأوضح العلاقة المشرقة بين يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد بشكل واضح جلي ، ثم عرج على الحياة الفكرية في هذا العصر ورعاية المرابطين للعلم والأدب ، وأورد تراجم بعض الشخصيات العلمية والأدبية من هذا العصر .

وسار على هذا المنهاج العلمي الدقيق في بحوثه عن عصر الموحدين وعصر المرينيين وعصر السعديين وعصر العلويين .

وأورد في الجزء الثاني من كتابه نماذج رائعة من التحميد والصلاة ، ومن الخطب ، ومن المناظرات ، ومن الرسائل ، ومن المقامات ، ومن المحاضرات ، ومن المقالات .

أما في الجزء الثالث من هذا الكتاب ، فقد أورد المؤلف منتخبات أدبية من المنظوم ، فأورد نماذج حية من الحماسة والفخر ، ومن الغزل والشوق ، ومن الوصف ، ومن الآداب والوصايا والحكم ، ومن الملح والطرف ، ومن الرثاء وذكر الموت ، ومن الموشحات والأزجال ... وبذلك انتهى الكتاب بثلاثة أجزاء بلغت عدد صفحاته ألف صفحة من القطع المتوسط .

ولعل من أصعب الأمور على الذين يتحدثون عن هذا الكتاب ، هو انتقاء نماذج مما ورد فيه من نظم ونثر للدلالة على قيمته .

إنّ كل ما ورد من نماذج رائعة في الكتاب تُخرج أعناقها مدّعية الفضل والسموّ والبيان، فكيف يستطيع المتحدّث عن الكتاب أن يفاضل بينها، ولكل واحد منها شهود عدول ؟

وسأفتح الكتاب عفواً، وانتخب أول ما يقع عليه البصر.

قيل لأبي علي الحرّالي المراكشي: كيف أصبحت ؟ فأنشد:

أصبحتُ ألطفَ من مَرّ النسيم إذا سرى على الرّوض، كاد الوهم يؤلمني

من كل معنىً لطيف أجتلي قدحاً وكلّ ناطقة في الكون تطربني

وكان بعض تلاميذه مؤلعاً بالشراب، فعكف ليلة على الشرب حتى سقط على زجاجة فجرح في وجهه، فلما أصبح صار الى الشيخ وأثر الزجاجة ظاهر عليه، فأنشده:

لا تسفكنّ دم الزجاجة بعدها إن الجروح كما علمت قِصاص

فخجل التلميذ، وكان ذلك سبب توبته [1].

وللعلامة المكّودي من مقصورته في السيرة النبوية:

أرّقني بارق نجدٍ إذ سرى يومِضُ ما بين فرادى وثُنى

أهبّني إذ هبّ منه مَوهِناً [2] ما سدّ ما بين الثريا والثرى

شممت من أرجائه إذ شِمْتُهُ ريحَ صباً أضوع من ريح الكبا [3]

فيا له من بارقٍ ذكّرني من الهوى ما كنت عنه في غِنى [4]

---

(١) أنظر ص (٤٨٤) من الكتاب.

(٢) الموهن: كالوهن، نحو منتصف الليل.

(٣) الكبا: عود البخور.

(٤) انظر القصيدة في ص (٨١٠ — ٨١٧) من الكتاب.

وفي آخرها يقول :

مقصورة لكنّها مقصورة — على امتداح المصطفى خير الورى
فقت علاء كل ذي مقصورة — وإن همُ نالوا الأيادي والنُّهى
فحازم قد عدّ غير حازم — وابن دريد لم يفده ما درى
ما شبتها بمدح خَلْق غيره — لرتبة أحظى بها ولا جَدا (١)

ولعبدالله بن محمد العلوي الشنقيطي في الرثاء :

هو الموت عَضْبٌ لا تخونُ مضاربه — وحوضٌ زعافٌ كل من عاش شاربُه
وما الناس إلا واردوه فسابق — اليه ومسبوق تخبّ نجائبه (٢)

والخلاصة ، إن الداخل في حديقة غنّاء ، وهو يحبّ الورد ويتمنّاه ويشتاق الى عبيره يحتار من أي عبير يشمّ وأي زهر يقطف .

إنّ أهمّية هذا الكتاب تتلخّص فيما يلي :

اولاً . إنه أثبت بشكل قاطع أن في المغرب علماء وأدباء لا يقلّون شأناً عن إخوانهم في أقطار العرب الأخرى .

ثانياً . إنه أبرز أصالة الأدب المغربي وروعته وعلوّه ومتانته .

ثالثاً . إنه نشر أدباً ممتازاً كاد النسيان يطويه .

رابعاً . إنه أضاف الى الأدب العربي ثروة من فنون الأدب لا تقدّر بقيمة .

خامساً . إنه أعطى صورة واضحة للتاريخ السياسي المغربي تفيد مؤرّخ الأدب كما تفيد مؤرخ المغرب سياسياً .

---

(١) راجع ص (٨١٦) من الكتاب .

(٢) انظر القصيدة في ص (٩٠٢ — ٩٠٤) .

فهو كتاب يفيد الأديب ومؤرخ الأدب والمؤرخ السياسي والاستاذ والطالب ، لأنه كتاب بعيد عن ابتذال الرأي وضعف القول ، وهو عصارة ذكية لخزائن كاملة من الكتب النادرة . كما ان الكتاب عمل وطني لا غبار عليه : يذكي الهمم ، ويذكّر بالماضي المشرّف ، ويستخلص العبرة المفيدة ، ويوجّه الى الخير ، ويدلّ الى طريق المجد الطارف والتالد . لذلك صدر قرار عسكري بمنع رواج الكتاب ، ومعاقبة من تُضبط عنده نسخة منه وذلك في أيام الاحتلال الفرنسي البغيض للمغرب الحبيب [1].

وإذا كان لهذا القرار دلالة ، فهي تأكيده لكون الكتاب عملاً وطنياً فوق كونه عملاً أدبياً ، ولذلك استحقّ أن يحظى من الاستعمار الفرنسي الغاشم ، بهذا الجزاء الظالم .

لقد استمتعت بهذا الكتاب استمتاعاً فيه فائدة وفيه لذّة ، وأفدت منه في دراستي لقادة فتح المغرب العربي [2] فائدة اختصرت عليّ كثيراً من الجهد وكثيراً من العناء ، فالمؤلف ثبت أمين فوق الشبهات ، وهو أعرف بموطنه ، وأهل مكة أعرف بشعابها .

وعلى الرغم من أن المطابع في العصر الحديث لفظت أكداساً ضخمة من الكتب والمؤلفات ، فإن الذي سيخلد من تلك الكتب قليل قليل ...

ويوم تموت الكتب والمؤلفات التي لا قيمة لها لأنها غثاء كغثاء السيل ، سيُكتب لكتاب : النبوغ المغربي في الأدب العربي البقاء والخلود .

ذلك لأن مؤلفه رجل عالم ، يقدّر أمانة العلم ، ويعتبره عبادة ورسالة لا سلعة وتجارة ،

---

(١) نص ما كتبته جريدة السعادة لسان حال حكومة الحماية بعددها رقم ٤٠٩٢ في هذا الصدد تحت عنوان : بلاغ عسكري : « أصدر سعادة الجنرال خليفة سعادة القائد الأعلى للجنود بالنيابة أمراً يقضي بمنع الكتاب المعنون بالنبوغ المغربي في الأدب العربي الصادر باللغة العربية في تطوان من الدخول الى المنطقة الفرنسية بالمغرب الأقصى ، وكذلك بيعه وعرضه وتوزيعه ، ومن خالف ذلك يعاقب بمقتضى القوانين المقررة » .

(٢) كتاب من سلسلة : قادة الفتح الاسلامي سيصدر قريباً .

ويزن الكلام ويمحّصه ، ويقول الحق ولو كان مُرّاً ، ويريد للناس الخير بما يكتب قبل أن يريد الخير لنفسه .

إنه كاتب نظيف القلم ، نظيف الماضي ، نظيف الحاضر .

تحية إكبار للاستاذ الجليل عبدالله كنون ليست لشخصه فقط بقدر ما هي لكل كاتب نظيف القلم ، نظيف السيرة ، يعمل باخلاص لخدمة مبادىء القرآن ولغة القرآن ، ويسهر الليالي ويحرق أعصابه ويطفىء نور عينيه ، ليفيد وطنه وأمته بما يخرجه للناس من علم نافع وأدب أصيل .

الأعظمية في ٢٧ / شوّال / ١٣٨٥ محمود شيت خطّاب